إشكالية الإنسان و الحرية
في رواية " السقوط الحر"
لوليم جولدنج

د حسن عليان
جامعة فيلادلفيا
الأردن

ملخص الدراسة

يهدف هذا البحث إلي كشف رؤية وليم جولدنج لمسألة الحرية في روايته " السقوط الحر " و إلى معرفة منابع هذه الرؤية على صعيد الفليفة الإنسانية عبر عصورها و إلى موقف الإنسان الروائي من هذه الحرية – رؤية و سلوكا – .

و قد جاء البحث في أربعة محاور ، هي :

أولا : إشكالية العلاقة بين الإنسان الروائي و الحرية

ثانيا : العلاقة بين الوسط البيئي و الحرية الفردية

ثالثا : العلاقة الجدلية بين السياسة و الجنس

رابعا : الإشكالية السياسية و صراع المصالح

أولا : إشكالية العلاقة بين الإنسان الروائي و الحرية

لم يخرج وليم جولدنج في رواية (السقوط الحر) عن حقل الفلسفة ، و بخاصة قضية الحرية - الخلفية الفكرية و الثقافية - التي صدر عنها و هو يقيم بناء شخصياته المعماري على صعيد الفكر الحر في الممارسة ، و الرؤية ، و المعتقد ، . لقد كان وليم جولدنج نتاج عصره الثقافي - في بريطانيا - بموروث هذا العصر الثقافي ، و الديني و الأخلاقي ، و نتاج موروثه الديني - اليهودية - و يجب بداية النظر عند معالجة القضايا الفكرية ، و ما هية الشخصيات ، و مستوياتها الثقافية و الدينية و الأخلاقية ، و رؤيتها السياسية و الدينية ، إلي السياق التاريخي لهذه الأفكار ، في إطار المجتمع الانجليزي الذي ينتمي إليه وليم جولدنج ، و إلى رؤية العصر ، و مكونات ثقافية " بوصفها نابعة منه ، و بدورها مؤثرة في الحياة و الثقافة الموروثة ، و المعاصرة في تلك الأيام "(1)

و قد اعتمد وليم جولدنج لإقامة بنائه المعماري ، و لبناء عوالم شخصية روايته أسلوب الاستدعاء التاريخي و الاجتماعي و الديني ، و الموروث الثقافي ، كما اعتمد الاسترجاع الحدثي ، و التاريخي و الفكري ، و التقطيع السينمائي ، و التموجات النفسية ، و الانبثاقات الجوانية المرتبطة بالمخبوء الديني ، و المونولوج الداخلي ، في تشكيل صورة بطله - سامي ماونتجوي ، اليهودي الديانة - بأبعادها الإنسانية ، و الاجتماعية ، و الأخلاقية و مفعولها الديني ، و دور هذه الأبعاد في رسم منحنيات السلوك و التقاطعات الفكرية ، و المحاور الأخلاقية في إطار الحرية التي أقام عليها الكاتب بنية نصه الروائي ، و على قاعدة رؤيته

الفلسفية لأفكار شخصياته و نظرته الفلسفية للوجود ، و الإنسان ، و الكون ، و الحياة .

لقد اعتمد وليم جولدنج الرؤية الفلسفية و هو يقيم شخصياته بأفكارها، و سلوكها ، و رؤيتها ، و لكن هذه الرؤية لم تكن فلسفية بالمفهوم الفلسفي للأشياء ، فهو يقدم لنا قضايا للبرهنة عليها ، أو موضوعات حاول إثبات صحتها أو نفيها ، و إنما قدم قضايا إنسانية تنطوي على معان فلسفية ، و نظرات إلى الوجود ، كما قدم سارتر روايات فلسفية تقول فيها الشخصيات كل ما تريد أن تقوله ، و كل ما يريد الآخرون قوله عنها . و يمكن القول :" إن الرواية الفلسفية لم تعد تنتظر من النقاد أن يتعرفوا على شخصياتها ، أو أن يدرجوها تحت بعض الأنماط الشخصية العامة ، بل هي قد أصبحت تقوم بهذه المهمة لحسابها الخاص دون أن تنتظر من أي ناقد فني أن يجيء فيتناولها ، أو يفسرها ، أو يضطلع بشرحا " (2).

و من هنا فقد كلن بلزاك ، و ستندال ، و بروست ، و مالرو ، و كافكا و غيرهم روائيين فلاسفة .

و جدير بالذكر أن مشكلات الشخصيات الروائية الأخرى لم تكن مهملة أو ثانوية في الرواية ، بل كان لها دورها الفاعل في إلقاء الضوء على الشخصية المركزية ، و تغذيتها بالرؤية ، و الحدث ، و السلوك ، و في تشكيل هذه الشخصية ، سواء أكانت شخصية الأب المنزاحة من ذاكرة البطل ، أم صورة أمه و استاذيه و أصدقائه . و قد حاول أن يستدعي لصورة والده أشكالا ، و صورا متعددة ، و مواقف و ملامح لا تمت لها بصلة ، نزولا عند رغبة حريته الفكرية في خلق نموذج أو نماذج لصورة الأسرة المثالية التي تمناها .

و يلاحظ أن بنية ماونتجوي الاجتماعية ، و وسطه المادي -

الجيتو أو الحي اليهودي - أقاما العلاقة المقلوبة أو المنعكسة ، أو علاقته بالأغيار على قاعدة معتقده الديني ، فكانت العلاقة التبادلية متقاطعة و متوازية في كثير من الأحيان مع الأوساط ، أو المناخات الاجتماعية الأخرى و متضادة ، كشف عنها ماونتجوي في رؤية الآخرين له ، و منطلقات تعاملاتهم اتجاهه .

و ضروري في ظل هذا المناخ الأخلاقي و المادي للمجتمع أن يحس ماونتجوي القلق و الضياع ، و التمزق النفسي ، و الفكري و الأخلاقي ، بفعل لا عقلانية المجتمع التي يراها المظهر لهذا المجتمع ، و بفعل الفوضى ، و عدم التراتبية في علاقاته بالآخرين و بنفسه أحيانا ، و قد شكلت التراكمات النفسية و الاجتماعية ، و الموروث الديني ، رؤيته و مواقفه حيال أفراد المجتمع من حوله في إطار مفهومه الحرية ، الحرية الفردية التي يجب أن يتمتع بعيشها كل فرد في إطار رؤيته و سلوكه .

و لا شك في أن هذه الحرية غير المقننة ، أو غير المقيده بحرية الآخرين تقود إلى حالة من الاضطراب في الرؤية ، و المواقف و السلوك ، و إلى حالة من البلبلة الفكرية شكلت لديه رؤية عبثية ، و صورة سريالية للأشياء ، و العلاقات ، و الموجودات من حوله ، و كانت رؤية ماونتجوي اللامعقولة ، و العبثية و الفانتازية المفتاح الذي ولج بواسطته الكاتب أو البطل إلى فضاء النص الروائي ، يشكله بشخصياته ، و أحداثه ، و أفكاره ، و مضامينه ، و هو يسترجع زمن الحرب العالمية الثانية (انظر الرواية ص 11) .

و في ظل رؤية ماونتجوي لمجموعة العلاقات الفكرية و الإنسانية و الأخلاقية ، على صعيد الفرد و الجماعة ، و الصراعات الدولية ، و انتهاك كرامة الرنسان ، و بالتالي حقوقه ، و أثر هذه العلاقات في تحديد رؤية الإنسان للآخر على اختلاف الأزمنة و

الأمكنة ، و على الصعد كافة ، تفجرت في ذهنه أسئلة حول ماهية الإنسان ، و النظريات القائمة ، و الايديولوجيات المتصارعة . و قد انتظمت هذه الأسئلة الحرية ، الفردية منها و الإنسانية . و أهم هذه الأسئلة : متى يمتلك الإنسان حريته ؟ و متى يفقدها ؟ و ما مَعنى الحرية ؟ و ما ماهيتها و مستوياتها ؟

لقد انهالت هذه الأسئلة على لسان ماونتجوي بعد خروجه من سجن النازي إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فجاءت الرواية أسئلة عن معنى الحرية الإنسانية للفرد و الجماعة و الدولة، و اسئلة عن معنى الالتزام ، لا في بعده الفردي فحسب ، و إنما في بعده الديني و الأخلاقي و السياسي و الاجتماعي ، و لم يكن الالتزام لدى بطل الرواية أو الكاتب بالمفهوم السياسي أو القومي أو الديني فحسب ، بل التزام بالذات لفردية ، و بمسؤوليتها حيال تصرفاتها و أنماط سلوكها و مواقفها . فالالتزام أو إرادة الالتزام بالفكر و بالعمل والتوجه و السلوك يعني الحرية - حرية الأختيار ، و الانتماء لفكرة أو لطرح أو لموقف . و إذا ما تخلى الفرد عن حريته، فإنه يفقد شخصيته ، و يصبح لا شيء في المجتمع و الوجود الإنساني .

و يشترط لهذه الحرية أن تكون في وسط بيئي ، و على اتصال بالأشياء الخارجية ، فإن لم توجد فيعني ذلك عدم اختيار حريتنا أو معرفتها . و كما يقول سارتر فإن :" إدراكنا لأنفسنا و تعريفنا لها مشروطان بالعلاقات التي تربطنا بالعالم الخارجي"(3)، لأن الآخر الموجود هو الوساطة الضرورية التي نتوصل بها إلى معرفة وعي أنفسنا في أعماقنا .

و يشكل فقد الإنسان شخصيتها القلق ، و اليأس ، و الإحباط ، و يشعر بعبوديته للآخر ، سواء أكان الآخر فردا ، أم منظمة ، أم

مؤسسة ، أم دولة .

و تقوم الرواية على قاعدة فقد الإنسان حريته ، الأرضية ، أو القاعدة الصلبة التي أقام عليها الكاتب روايته ، و لذا كان مدخل الرواية السؤال المحير لبطل الرواية (ماونتجوي) ، النموذج لإنسان القرن العشرين بشكل عام في الغرب ، و بخاصة بريطانيا ، و لإنسان الأزمات الدولية و الحروب . يقول ماونتجوي لنفسه :" متى فقدت حريتي ؟ يوما ما كنت حرا ءملك قوة الاختبار ، آليات السبب و النتيجة عبارة عن احتمال إحصائي ، لكن من المؤكد أننا في بعض الأحيان نعمل في أدنى تلك العتبة أو ورادها ، لا يمكن للإرادة الحرة أن تكون موضع جدل ، بل هي ممارسة ، شأنها في ذلك شأن اللون ، أو مذاق البطاطا " (4) .

و نشعر أن ما يؤرق وليم جولندنج قضية الحرية ، امتلاكها أو فقدها ، و المسؤول عن تغذيتها أو سلبها ، حرية الإنسان الفرد علي وجه الخصوص ، فالفرد الإنساني هو محور اهتمام الكاتب ، و جدير بالذكر أن هذه الحرية التي فقدها بطل الرواية ، ماونتجوي ، أو وليم جولدنج النموذج الإنساني في العصور و الأمكنة كافة ، هي محور اهتمامه ، و لذا يلقي الكاتب الضوء على العوامل التي أدت إلى سقوط الشخصية الإنسانية نتيجة فقدها حريتها الفردية و الجماعية و الاجتماعية بمفهومها الإنساني العام و المطلق . و يتساءل الكاتب عن سبب هذا السقوط بقوله : متى فقدت حريتي ؟

و تجدر الإشارة إلى أن وليم جولدنج لم يرجع فقد الحرية إلى معلم واحد أو معالم جزئية ، و إنما أرجعها إلي رحلة الإنسان العمرية ، بدءا بطفولته ، و مرورا بكل الأطياف الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الأخلاقية ، الفردية منها و الجماعية ، سواء على صعيد المجتمع أو الدولة أو الدول الأخرى و انتهاء بلحظة

ما قبل النزع الأخير .

و بقراءة أعمال وليم جولدنج الروائية : آلهة الذباب ، و الوراثة ، و السقوط الحر ، يدرك القارىء أن جولدنج وضع مبضعه علي الحقيقة التي يجب أن يدركها الإنسان ، و هي أن الإنسان يواجه حقيقة محزنة تتمثل في قسوته و شهوته ، المحور الرئيسي لأعماله الفنية . كما يجب أن يعي أن الإنسان : كائن ساقط ، و أنه أسير خطيئته الأصلية ، و أن طبيعته آثمة ، و أن وضعه محفوف بالمخاطر .

و يضع جولدنج أمامنا حقيقة أن ما يبدو شائعا و مبتذلا هو حقيقة بدهية ، و أن هذه الحقيقة تتضح أكثر فأكثر أمام أعيننا ، و نتفق مع رأي الناقد فرانك كيرفود أن وليم جولدنج اعتمد العهد القديم – التوراة – أرضية ، أو قاعدة أقام عليها بناءه الروائي ، الفضاء الذي تحركت في أجوائه الشخصيات الروائية ، و هي تمارس الفعل ، و تبني الحدث على الصعيد الخارجي و النفسي .

و قد برع جولدنج في طرح فكرته الرئيسية بشخصياته الروائية ، و الحدث الروائي ، و من خلال المعمار النفسي الداخلي – الجواني لشخصيته بطله مانتجوي على قاعدة التوراة ، و تعكس الفكرة أن الإنسان يكون مجبرا على ذلك ، فالإنسان منحه الله العقل ، و بين له مسالك الرشد و طرق الغواية ، و عليه أن يختار ما يريده بحرية و اقتدار .

و يلاحظ أن جولدنج ترك المناخ لشخصيته مفتوحا تتحرك فيه و تعمل ، و تفكر بمحض إرادتها ، و تنتقل من مكان إلى آخر ، و تسبر غور الزمن كيف تشاء دون تدخل خارجي منه ، و دون أن يقوم بتوجيهها نحو هذه الفكرة أو تلك ، أو نحو هذا العمل أو ذاك ، على قاعدة أن الحرية الإنسانية يجب أن تنبع من ذات الإنسان

نفسه لا من خارجها ، فالحرية لا تفرض بقوة القانون ، و هي وفق منظومة الكاتب الفكرية إرادة داخلية ، و على الفرد أن يمارسها بالأسلوب الأمثل له دون وصاية أو فرض من قوى خارجية .

و قد خرج جولدنج عن رؤية سارترية لمعنى الحرية ، فهي المصدر الوحيد لكل قيمة ، و لا غاية لها " غير أن تريد نفسها ، فنحن نريد الحرية من أجل الحرية " (5) . و لم تخرج شخصية روايته عن هذه الرؤية فماونتجوي نحى النظم و القوانين ، و النظريات و الأيدولوجيات المفروضة علي البشر جانبا ، احتراما لإرادة الإنسان في حرية الاختيار ، و لذا لم يلتزم نظرية أو قانونا ، أو قاعدة له ، فهي في نظره غير ملائمة ، لأنها تأتي من خارج الإنسان ، و قد راها ماونتجوي أنماطا مفتوحة تتراوح في جاذبيتها بين الجمال الأخاذ و بين السأم ، و رغم ذلك فقد علق جميع الأنظمة على الحائط مثل القبعات (6) .

فالقبعات لا تصلح بأحجامها ، و أشكالها و زخرفها و مقاساتها لكل الرروؤس ، فما يناسب رأسا لا يناسب الآخر ، و اللون الذي يعشقه إنسان قد يصاب آخر منه بالغثيان ، و يسبب له الاكتئاب ، و لذا يجب أن نترك حرية الاختيار للفرد بما يناسب فكره و رغبته في كل الحقب و العصور ، حتى يحقق خلق نفسه ، و تكوين ماهيته و جوهره على قاعدة حريته في الاختيار ، " و حتى يكون مسؤولا ، و هو يبين ماهيته و فكره ، و يكونهما بوعيه لها و لما حولها من العالم الخارجي في حرية تامة و اختيار . و يدل هذا الاختيار على الرويّة و التمييز لما يجب أن يختاره الإنسان " (7).

لقد حاول ماونتجوي أن يعتنق الأفكار و الأيدولوجيات عبر مراحل حياته ، و لكنه خرج باقتناع أن هذه القبعات - الديانات و الأيدولوجيات - لا تصلح لكل الفصول ، فما يلائم فئة قد لا يلائم

أخرى ، و لذا يريد نموذجا يلائم كل شيء ، و هو يعرفه ، و لكنه يتساءل أين سيعثر عليه ، يقول :" أهو نموذج أبحث عنه ؟ القبعة الماركسية في وسط الصف ؟ هل اعتقد يوما ما أنها ستكفيني طيلة حياتي ؟ ما هو عيب القبعة المسيحية التي قلما ارتديتها ؟ و فتنني قبعة الشيطان العقلانية من المطر وبدت لا تقهر، مدرعة ، كئيبة ولائقة ، وهي تبدو الآن صغيرة بل سخيفة، قبعة مستديرة شأنها شأن جميع القبعات المماثلة ، شكلية تماما ، كاملة تماما ، جاهلة تماما . و هناك قبعة مدرسية أيضا ، لم أفعل شيئا سوى وضعها هناك . لا أدري شيئا عن القبعات الأخرى التي ينبغي لي أن أعلقها بجانبها عندما أفكر أن الأمر قد حدث . القرار الذي اتخذ بحرية كلفني حريتي " (انظر الرواية ص 13) .

و في إطار هذه الحرية لم تخرج رؤية و ليم جولدنج للبشر عن مجمل سياق رؤيته الحرية . فقد رأى أن البشر حقل عشب ، و لأجل الحفاظ على شكله الهندسي متناسقا و جميلا فيجب أن يدور حوله الإنسان ، و ينظر إليه من زوايا مختلفة و متعددة ليستطيع التعامل معه بصورة أو بأخرى تشذيبا و تهذيبا ، و ليشكل منه انساقا متعددة ليست نمطية و لا تراتبية ، و لا خاضعة لقانون الغاب ، بل خاضعة لقانون نموها الداخلي و طبيعتها .

و في إطار هذه الصورة الرمزية الشفافة أراد الكاتب بيان أن الإنسان إذا ترك دون رعاية أو توجيه ، أو تهذيب ، ، فإن رغائبه و ميوله و أهواءه ستؤثر بشكل أو بآخر على سيرة حياته ، كما ستؤثر عليه القيم ، و القوانين ، و المفروضات الخارجية الجبرية ، و غيرها . و ستفرض عليه أفكارا تشكل أنماط سلوكه ، و مواقفه دون حرية .

و لأجل فهم معنى الحرية المتوخاة ، فقد أهمل الكاتب الملامح

الخارجية للإنسان ، و البنية الداخلية - الأعضاء و الأجهزة الداخلية - لأن الإنسان ليس هو القشرة الخارجية ، و ليس يدا أو عضلة ، بل هو الفكر و الإحساس الذي يختلف من فرد إلى آخر في التصور و الشعور ، و هو ذاتية الفرد التي تحقق للإنسان وجوده في إطار من التفكير و حرية السلوك ، و في إطار من الوعي لأنفسنا و للآخرين ، و هو ذلك النظلم الداخلي النابع في أعماق النفس البشرية ، الظلام غير المسمى الذي لا يسبر غوره ، و غير المرئي الذي يقبع في أعماق الفرد يقظا دوما ، و مختلفا دوما عما تعتقده ، مفكرا و شاعرا دوما ، إنه الإنسان الخلاق دائما و المتجدد الذي لا يرضى بما هو كائن منهجا و تطبيقا .

و تأتي هذه الرؤية للضمير الإنساني ، الفاعل المتحرك من زاوية الإدراك الفلسفي للإنسان و الكون و الحياة عبر مرحلة الإنسان الممتدة في أعماق الزمن ، منذ الخطيئة الأولى - خروج آدم من الجنة - ، و حتى قيام الساعة ، حتى لا يسقط الإنسان في وهدة الخطيئة المدمرة .

و توقفت عند فهم الكاتب للزمن ، فالخيط الزمني الممتد عبر تاريخ البشرية لا يعني شيئا للكاتب منذ القهقهة الأولى و حتى الشهقة الأخيرة ، فهو شيء ميت ، أما الزمن الذي يعنيه فهو زمن الذاكرة ، زمن الاحساس النفسي بالاضطراب و الاخفاق ، زمن الفعل و الحدث و الموقف ، الزمن الدال على الوجود الإنساني ، و يعي الكاتب مفهوم هذا الزمن ، و هو يقيم بناء شخصية بطله ماونتجوي في إطار فقده حريته لأسباب داخلية ، و أخرى خارجية . و يطرح مانتجوي على نفسه السؤال الإنساني المقلق و المحير و هو :" متى فقدت حريتي ؟ " و قد أجاب الكاتب عن ذلك ، و هو يتتبع العوامل الفاعلة في تكوين شخصية روايته ، و دور هذه

الفواعل في تشكيل مناحي سلوكه التي لعبت الدور الأكبر في ارتكابه الأخطاء ، و بالتالي فقده حريته ؟ و أهم مظاهر هذه الحرية العلاقة الجدلية بين الوسط البيئي و الحرية الفردية .

ثانيا : العلاقة الجدلية بين الوسط البيئي و الحرية الفردية :

يمتاز الإنسان عن غيره بملكة الحرية التي ينفرد بها عن غيره من سائر المخلوقات بالتفكير و الإرادة و السلوك و يصدر عن هذه الحرية بإرادة و اختيار واعيين ، و لذا فحرية الفرد تكون في " اختيار الفعل عن روية مع استطاعة عدم اختياره ، أو استطاعة اختيار ضده " (8) وفق اصطلاح التقليد الفلسفي ، و الفعل الناتج عن حرية الفاعل ، على حد تعبير الإمام الغزالي هو " ما يصدر عن الإرادة حقيقة " (9). بينما ءطلق على من اختار الفعل بأنه " من يصدر منه الفعل مع الإرادة للفعل على سبيل الاختيار ، و مع العلم بالمراد " (10) .

و بقراءة رواية السقوط الحرنجد أن شخصية مانتجوي بطل الرواية ، تشير في أبعادها و صورها ، و في دلالاتها إلى عمق فكر وليم جولدنج ، و ثقافتة الإنسانية في ملامحها و أبعادها ، و دلالاتها ، و جوانبها الداخلية و الخارجية . فهو معني بتتبع دقائق التفاصيل الجزئية لشخصية ماونتجوي و بخاصة الجواب النفسية ، و العوامل المؤثرة في بنية هذه الشخصية ، الإنسانية و الاجتماعية و الثقافية . و لا شك أن شخصية الفنان - إحدى مكونات شخصية ماونتجوي - لها دور بارز في تشكيل رؤية ماونتجوي و فكره و شفافيته ، و حاسيته الفنية الغنية بالأبعاد و الرؤي و الدلالات .

و قد كشفت رؤية ماونتجوي الخلافة ، لزوايا متعددة من الشخصيات الفاعلة في بناء شخصيته - عن الموهبة الفنية التي

يتمتع بها بطل الرواية ، ماونتجوي ، و بخاصة في رسمه ماهية شخصية والده الذي لم يره ، و مكانته ، و تعددية صوره . و تشير هذه الموهبة إلى حريته الفنية و هو يقيم صورة والده بأوجهها المتخيلة و المتعددة ، و تدل هذه الصورة على حرية التنفيذ لملكة الاختيار الواعي دون ضغط خارجي ، رغم أنها خضعت لجانب سيكولوجي .

كما تدل على حريته الفكرية و الفنية المتخيلة ، و لم تأت الصورة متجانسة أو متناغمة في وظائفها و مكانتها ، و لكنها كانت متناغمة و حرية الاختيار لديه ، رغبة من ماونتجوي في رؤية بعض أطياف المجتمع الطبقية متمثلة في شخصية والده ، الأمر الذي أكسبه بعدا اجتماعيا له خصوصيته المنتقاة ، يستطيع أن يتحرك به و معه و لو في إطار النفس ، و يمكنه من أن يشعر بكينونته المفقودة .

لقد تراوحت هذه الصور بين أمير وضابط و قسيس يمكن بوساطتها أن يستشعر عظمته و مكانته المنتفية في العالم الخارجي ، رغم أنها تقبع في زوايا ضميره ، و في أعماق لاوعيه و شعوره ، و في مخزونه الفكري . لقد استمد ماونتجوي من مخزونه الثقافي و الفكري شعوره بالعظمة في ذاته ، و بأنه امتداد لأسلافه الغامضين في التاريخ - اليهود - و لم تحل معيشته المسحوقة في حي روتن رو، المطعون بالفقر و الرذيلة و الاحتقار دون ذلك . و يعكس هذا التصور حريته في أن يعيش لحظات ماونتجووية مع التاريخ المفقود ، و هو يبحث عن الجانب الخبيء و المظلم من شخصية والده ، و هو الجانب المفكر و الحساس . و في إطار هذه الحرية اتجه نحو خلق نموذج أو نماذج ، هي صورة والده المتخيلة ذات الشأو السياسي و الاجتماعي .

و يأتي هذا الإدراك المتخيل على لسان والده الذي ارتآه ماونتجوي حقيقة واقعة في عالمه المدرك المتخيل. يقول والده له :" عالمهم هو عالمي، عالم الخطيئة و الخلاص، عالم المظاهر و الإيمان الواضح، عالم الحب في الوحل. أنت تتعامل يوميا في دم حياتي. أنا واحد منكم. رجل مسكون، مسكون بأي شيء ؟ و ممن ؟ و هذه صرختي هي أنني سرت بينكم بحريتي العقلية، و لم تحاولواإغوائي بعيد عنها " (11).

أما صورة والدته فقد جاءت مزيجا من الحقيقة و الخيال، و جملة من المتناقضات علي الصعيد الأخلاقي، و لم يحل كونها قطب الدائرة بالنسبة إليه، و بأنها أحد برجيه التوأمين، دون هذه الصورة. فهي مثالية تارة، لا تعرف العلاقات الجنسية. و تارة أخرى عصامية تعمل خادمة في البيوت لتوفر الحياة لها و لطفلها. و تارة ثالثة شبقه تمارس الجنس لأجل الجنس، و تشارك الجميع متعة اللذة. و يصفها ماونتجوي بقوله :" كانت مخلوقة، شاركت الجميع في المتعة كأنها حلمة مرضعة، انهمكت و هي تضحك بعربدة، و تزفر الحسرات، و لا بد أن العلاقات الجنسية العابرة كانت تعني لها ما تعنيه أعماله للفنان الحقيق - الأعمال و ليس أي شيء آخر (12). و كانت تارة رابعة بلا مضامين، تافهة فارغة المحتوى، لا هوية لها و لا ظل و لا أبعاد إنسانية تمنحها التفرد و الخصوصية.

و لم ينس مانتجوي في إطار استحضار جزئيات ملامح صورة أمه الجنسية و الأخلاقية أن يؤطرها في شكل محدد بدا ضخما، منفرا، و عنيفا، و مرعبا فيه " ترعب الآخرين و لكنها لا ترعب، هي تخيف و لا تخاف، هي تهمل، و لكنها لا تزيغ أو تشتغل، عنيفة دون حقد أو قسوة، هي بالغة دون وصاية، أو شعور

بالتفوق ، لكن قبل كل شيء هي حاضرة " (13).

و تجدر الإشارة إلى أن المكان ، بأناسه ، و بيوته ، و حاراته ، و الفوارق الاجتماعية قوية في تأسيس بناء معمارية الشخصية الإنسانية و إقامتها ، فحي (روتن رو) المتواضع ، أو الجيتو المطعون – الحي اليهودي – بفقره ، و تواضعه ، و قذارته ، و أطفاله المتسخين لم يكن غنيا بتفاصليه الإيجابية ، و لم تكن ذكرياته كما يقول :" عن هذه الوجوه البشرية وردية أو بيضاء ، بل كانت رمادية و بنية " (14). و لم تأت هذه الصورة صورة عبثية ، بل صورة حقيقية لأطفال الجيتو اليهودي القذر . يقول مانتجوي :" كنا نحن الأطفال ناقصي التغذية ، و ملابسنا غير كافية . فقد ذهبت إلي المدرسة أو مرة عاري القدمين .كنا حيوانات كثيرة الضوضاء ، تصرخ و تبكي " (15). و كانت تحكم الحي بالإضافة إلى القذارة ، و الفقر ، و سوء الخلق ، شهوة الجنس ، فالعجوز دونافان تحب ممارسة الجنس ، رغم معرفتها بأن الفرصة لن تمنح لها ، و كذلك ابنتها ، و ماغي الشقية . و تحكمه كذلك حالات ثلاث قبل بها حي (روتن رو) رغم أنفه ، يوصفها هزيمة دون قيد أو شرط و هي : الفقر ، و الجريمة ، و الموت (انظر الرواية ص 33) .

و ليس بغريب أن تحكم هذا الحي لغة الاستفزاز ، فهو مثوثب ، و قلق ، و متحفر ، و مضطرب ، يؤمن بالموت " بوصفه طقسا و مشهدا ، و بوصفه وقت الحداد و الإبتهاج " (16) .

و في هذا الإطار فإن ما ونتجوي يكشف عن طفولته البائسة ، و المدمرة ، و العاشقة لرؤية الموتى ، و المسكونة بموروثه ، يقول :" من المألوف أن الموتى يثيرون الإعجاب أكثر من الذين يولدون حديثا ، إذ يتم غسلهم و ترتيبهم و تنظيفهم ، و يحظون بالتأبين كأنهم فراعنة ملفوفون ، و تمتليء أجسادهم بالتوابل " (17) .

و يصف الكاتب حي (روتن رو) بأنه يثير السخرية و المرارة ، و تؤطره العبثية بعلاقاته الجدلية و المتناقضة ، كما يصف أفراده - و نموذجها أحد شخصيات الحي - بالحالة ، و بأنها في واقعها نموذج حي و صارخ لحي روتن رو القابع في أوحال الهزيمة و الجريمة و الجنس و اللاإنسانية . و تعكس هذه الصورة أن حي (روتن رو) مصاب بالارتباك و العجز و الشلل ، لأنهم افتقدوا تصور خريطة العالم الطبيعي ، و لأنهم افتقدوا صورة المجتمع المقبول التي يجب أن تكون . و يرى اريك فروم " أن صورة أي مجتمع طبيعي يجب أن تكون ذات تكوين و ذات نظام و تماسك داخلي " (18) . لأنهم لم يروا طريقا لتوجيه ذواتهم ، و لأنهم افتقدوا الخريطة التي يجب أن يكون عليها المجتمع الفاعل و البناء .

و تجدر الإشارة إلى أن الكاتب يحاول استدرار عواطفنا تجاه هذا الحي ، بمغالاته في وصف مظاهره اللاإنسانية ، ليثير شفقتنا ، و لكنه ترك الباب مفتوحا لنتصور أن هذه النماذج هي بفعل تراكمات نفسية ، و أخلاقية ، و اقتصادية ، و اجتماعية تمت للمجتمع اليهودي بصلة في اوروبا في القرنين الماضيين . لقد شكل اليهود مجتمعا منغلقا علي ذاته ، يجتر ذاته و نفسه حفاظا على كيانهم من الإندثار ، فالقضية لديهم سياسية أولا . لقد أراد اليهود ذلك لأنفسهم ، و لم يكن الجيتو حصارا مفروضا عليهم ، بل كلن الهزيمة الداخلية في أنفسهم ، و الشعور بالخيبة و الأسى الذي فرض عليهم التقوقع حفاظا على الهوية من الاندثار إلى أن تحين الفرصة للانطلاق و التدمير .

و يحاول مانتجوي أن يرسم صورة النموذج في شخصية الرجل الذي يقطن الغرفة العليا من منزلة ، يقول :" كان المأساة التي كتب عنها عدد كبير من علماء الاجتماع و الاقتصاد كتبا

كثيرة في القرنيين التاسع عشر و العشرين .... و كان هيكلا عظيما صغيرا و مربوطا بالجلد و بدلة زرقاء لامعة ... كانت يداه مثيرتين للاهتمام ، تتشابك فيهما العقد و الأوردة و الرقع البنية اللون ... بدا لي دوما كأنه ينظر إلى شيء غير موجود هناك ، شيء ذي أهمية و قلق عظيمين " (19) .

و لم تكن نظرة الأحياء الأخرى إيجابية لهذا الحي ، فهو في نظرهاافتراضات إنسانية ، و أسلوب حياة ، و كيان من القاذورات . تكاد رؤية مانتجوي تتساوق مع هذه النظرة السلبية لحي (روتن رو) . ، إن منحه شيئا من التعاطف و الود بعد أن غادره ، حيث لم تبق سوى مجموعة من الذكريات ، و على الرغم من مرارتها فإنها غلفت عاطفته بجو من الحلم ، و الواقع و الألم ، و الفرح ، و البرد ، و الدفء ، يقول مانتجوي :" كان صاخبا و دافئا بسيطا و معقدا ، فرديا و سعيدا على نحو غريب ، عالما قائما بذاته . لقد منحني علاقتين ... الأولى : علاقتي بأمي التي حجبت عني الظلام المتخلف ، و الثانية : بإيفي و حماستي في التعرف إليها ، وثقتي بها ، كانت أمي أقرب ما تكون إلى مومس . أما إيفي فكانت كذابة بالفطرة " (20) .

و قد عززت فيه إيفي بالإضافة إلي عالم حي (روتن رو) ، و والدته الصورة الفنية العجيبة ، و أطلقت العنان لعالم أحلامه ، و رؤاه ، و أوهامه الذهنية المتخيلة ، و تمثلت في صور الأشياء ، و الموجودات ، و البشر ، البعثية اللامعقولة ، فهي لا تمت للبشر ، أو للإدراك العقلي الواقعي بصلة (الرواية ص 43 - 44)، و لعل شطح عالم الطفولة الذهني منحه هذا التصور ، أو هذه الصور اللامرئية في عالم الواقع ، هذا الشطح الممتد إلى عالم الفنان - الطفل الكبير في تهيؤاته و أحلامه و أخيلته ، صدر عنها الكاتب الطفل الوعي

المنغرس في عالم طفولته اللامرئية في عالم الوجود ، بل هي ممتدة ومنغرسة في عالم ذهنه المتوثب الخلاق على الصعيد الفني ، وهو يقيم عالمه المتخيل . ومن هذا الأخيلة المستجدة في وعي الكاتب وفي عالمه الفني ، أو في حدود إدراك طبيعته الفنية ، تصور الكاتب أن الأشجار تتحدث ، وفق رؤيته العلاقة اللامعقولة بين التلاميذ والأشجار ، وإن إحداهما "تعين عليها أن تكشف فيما إذا كنا سعداء وطيبين ، ونواصل التعليم" (21) .

ولم يكن حي (روتن رو) بعلاقاته المتشابكة ، وبمكوناته الإنسانية ، والشيئية وبزمانه العبثي منفردا في تشكيل خصوبة شخصية ماونتجوى ، بهوياتها المتعددة ، والمتداخلة ، والمتشابكة ، و المتقاطعة والمتفردة أحيانا ، فرئيس الرهبان كان له حضور قوي في ذاكرة ماونتجوى/ الطفل ، ووعي فاعل بممتلكاته-الإنسان والأشياء والأمكنة والأزمنة ، للعالم الجديد بما تزخر به من حياة جد مختلفة ومتناصفة مع حي روتون رو .

وقد تضافرت مكونات هذه الممتلكات والمتعلقات ، وشغلت حيزا كبيرا له أهميته في وعي ماونتجوي ، بذكرياتة المتعددة ، وصداقاته ، وأبعاد هذه الصداقات في الوعي والفكر والسلوك ، وتناقضاتها .

فالإنسان مخزون يمتليء بالعبء من الذكريات ، و ليس مخلوقا آنيا يصنع فورا دون هوية ثقافية ، أو تشكيل اجتماعي ، أو أحلام مرحلة عمرية . أو قسوة فترة زمنية ، بل هو مجموعة متشابكة من الأهواء و الميول ، و النزاعات و الرغائب ، و الأفكار ، و الأحلام ،و الرؤى ، و التاريخ ، و الموروثات . إنه عالم قائم بذاته . و لذا فهو شيء معقد يصعب تصوره و ضطبه بشكل محدد قطعي . و بمعنى آخر فالإنسان ليس جسدا ، أو حيزا ماديا ، أو رد فعل آني

للكون ، و الحياة ، و الأشياء من حوله ، ، بل هو بناء معماري ، يزخر بألوان ، و أطياف ذاتية عن الحياة و الكون و البشر من حوله في علاقاتهم و أفكارهم ،، و أنماط سلوكهم ، كما يقول ماونتجوي. (انظر الرواية ص 65)

إن خصوبة هذه المرحلة بعلاقاتها البشرية و الفكرية و السلوكية ، اكسبت ماونتجوي زخما في الرؤية و التصور ، و اتخاذ المواقف بحرية تنم عن ذاتيته الواعية ، و أهم أركان هذه المرحلة - مرحلة الدراسة - صداقاته المختارة عن وعي و حرية ، و تأتي حريته في اختيار صداقاته لأسباب دينية و إنسانية ، و قد شكلت صداقاته لفليب أرتولد ، و جوني سبراغ ، فهو ينتسب إلى مجتمع ارستقراطي له رؤيته و مواقفه ، و مظاهر سلوكه المتناغمة مع رؤية طبقته ، و انتمائه الفكري و الاجتماعي .

لقد كان فليب أكثر الأشخاص غرابة و تعقيدا ، يجلس على الرصيف ، ينتظر حدوث اصطدام ، و كان مثالا حيا للانتقاء الطبيعي ، الذي يستطيع التواؤم مع الحياة في أبعادها ، و تناقضاتها ، و يستطيع العيش ابلكيفية الظرفية التي يفرضها الواقع . و يصفه مانتجوي بقوله :" فهو مهيأ للعيش في هذا العالم الحديث ، كما أن الدودة الشريطية مهيأة للعيش في الأمعاء " (22).

لقد كان ظل مانتجوي ، و معلمه ، فقد حقق له أشياء منها جمع بطاقات صور الفراعنة المرسومة على علب السجائر ، كما ربطه بالدين ، حيث أدخله الأبرشية ، رغم أن ماونتجوي لم يعمد ، فهو يهودي الديانة . لقد قبل ماونتجوي و جوني سبراغ الدين بوصفه جزءاحتميا من حالة غامضة تقع خلرج نطاق سيطرتهما ، فهما يهوديا الديانة ، و لذا دخل الدين حيواتهما المتعددة ، و نبع من مخزونهما الثقافي و الفكري الذي يشكل متعددات سلوكهما ،

و مواقفهما . و رؤاهما تجاه الإنسان الآخر ، و الحياة . أما فيليب أرنولد فقد قبل الدين على علاته ، لأنه يملك التفكير ، والعقل الهادئ . و رغم هذا التقبل ، فإن ماونتجوي لا يرى في المذهب المسيحي سوى الأساطير ، و الخرافات ، ، كما لا يرى فيه نموذجا يمكن أن يحقق للإنسان الفرد ، الحياة بأبعادها السياسية ، و الاجتماعية ، و الاقتصادية ، و الفكرية ، ، و يتساءل مانتجوي و هو يصتور فيليب قسيسا :" أي مستقبل هذا الذي ينتظر فيليب؟"(23). و يتساءل كذلك عن موقف فيليب من الدنيا ، و السياسة و الديبلوماسية ، و المشاريع ، و استغلال الناس للآخرين ، و عن المعايير الأخرى في ظل سيطرة قانون الغاب ، حيث لا تبرر فيه النتائج الوسائل . (انظر الرواية ص 79) .

و على الرغم من استنكار تدين فيليب فإن ماونتجوي يقبل سيطرة تعاليم ديانته اليهودية علي عالمه الفكري ، و على مظاهر هذا الفكر ، و في الوقت نفسه فإنه يرفض أو يستنكر تدين الآخرين الأغيار ، و لذا يرفض مقولة الأب انسيليم المستند إلى العهد الجديد ، و ترى المقولة سيطرة المادة على العقل اليهودي ، و تفكيره الذي حول المذهب إلي عجل يتعبده في عهد موسى عليه السلام ، يقول الأب انسيليم للأطفال أمام المذبح العالي :" انظروا أيها الأطفال ، ذلك ما يفكرون فيه ملوك مصر . القدح يحتوي على خطوط ذهبية خالصة "(24) .

و تجدر الإشارة إلى أن قضية نسف العجل لم تكن لتشغل بال ماونتجوي و فكره ، بل تحويل الذهب - العشق الأزلي العقلية اليهودية - إلى تراب أولا ، و لما يرمز إليه الذهب - ملوك مصر من الفراعنة - من إرث تاريخي مدعى و مزعوم ثانيا . فهو من وجهة نظر العقلية اليهودية دلالة على حكم اليهود المدعى لمصر ، و دلالة

على دورهم في المنجزات التاريخية و الفكرية و الثقافية ، و نموذجها الأهرامات . و قد حاول وليم جولدنج بأسلوب ذكي تمرير مقولة خاطئة مدعاة ، و تسويغها إلي العقل الأوربي و الإنساني ، بغية إقناعه بالإرث التاريخي لليهود في مصر ، و بلاد الشام ، و تقبله فكرة أنهم حكموا مصر في عهد الفراعنة المحببين إلى بطله ماونتجوي الصغير ، الذي يرقد على سرير المرض ، و لم يجد جولدنج لإراحة الصغير سوى حمل إرث أمه الباقي بعد رحيلها إلى العالم الآخر ، و تقديمه إليه . و يتمثل هذا الإرث في " مجموعة متسخة إلى حد ما من بطاقات السجائر ، مجموعة من ملوك مصر الذين ما زالوا عالقين في ذهني " (25) كما يقول ماونتجوي.

و جدير بالذكر ، أن تحويل الذهب إلى تراب لم يكن ليشغل فكر ماونتجوي ، و لكن رمز الذهب هو ما يثير اهتمامه ، ماونتجوي : " انظر الرواية ص 79)

و قد اتخذ وليم جولدنج من فيليب آرنولد المسيحي نموذجا يمكن تعميمه على الإنسان الأوروبي ، ليصل إلى نقطة تفكيره المركزية حول اعتناق اوروبا المسيحية في العصور الوسطى ، فاعتناقها كان شكليا و زائفا و مظهريا ، سار عليه الناس دون تمحيص ، زو تدقيق ، أو اقتناع ، و يلتقي وليم جولدنج مع اريك فروم في الرؤية " (26) . (انظر الرواية ص 147) .

و يحاول ماونتجوي رد مقولة الأب انسيليم ، ولكنه عجز عن تحقيق ذلك فقام برمي المسيحية بالشعوذة و الهرطقة ، و لم يقف الأمر عند ذلك ، بل قام بتدنيس الكنيسة بعد أن عجز عن إثبات صدق ادعائه التاريخي ، و عن تفنيد ما ذهب إليه الأب انسيليم .

و قد جاء انتقاء وليم جولدنج لشخصية الأب انسيليم المعلم

في مدرسة الكنيسة استحضارا تاريخيا لبعض فلاسفة المسيحية في العصور الوسطى ، و بخاصة القديس انسيليم و أوغسطين ، و القديس توما الأكويني ، فقد ذهب ثلاثتهم إلى التوفيق بين العقل و النقل فس قضية الأيمان بالله و الوجود (27)(انظر الرواية، ص100) .

و رغم وعي جولدنج لمواقف بعض الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى فإنه ينكر معتقد الآخر ، و قد جسدت ردة فعل ماونتجوي السلبية ثورة علي الكنيسة في إطار نفي الآخر - المعتقدات ،و المذاهب الأخرى - و احتراما لمعتقده الديني و تعزيزا له .

و لم تكن التقاطعات الفكرية و المذهبية لتثير في ذهنه مقارنات بين أفكار المذاهب الأخرى الدينية في تلك المرحلة ، فهو مسكون بإرثه التاريخي ، و بحبه تاريخ الفراعنة الذي يعتقده ضمن الإرث اليهودي ، و موروثهم الحضاري المدعى ، و غير الموجود حقيقة واقعة عبر التاريخ الإنساني ، و لتحقيق ذلك رغب ماوتنجوي في الثورة على الكنيسة ، و في التغيير إذا ما أتيح له ذلك . على قاعدة خلفيته الفكرية لحركات التحرر في القرن التاسع عشر ، و للنظريات المتعددة المثالية ، و الوجودية ، و اللاأدرية ، و النفعية ، و الأخلاقية ، و غيرها من المذاهب الفلسفية ، و في ظل هذا التصور تخيل نفسه حامل صولجان الثائر علي الكنيسة ، برجالها و رهبانها و سدنتها ، و رتبها الدينية ، إلا أن نعم القسيس - الأب واطس - واط ، و الده بالتبني - أقنعه بالعدول عمليا ، و ليس تصورا ذهنيا أو أخلاقيا . و دلالة ذلك استمناؤه في أروقة الكنيسة ، انتقاما و اثباتا لخصوبته و فحولته ، و شعورا بالمتعة الجمالية . و قد غفر لنفسه هذا السلوك . (انظر الرواية

ص101)

و لا شك في أن متعة ماونتجوي الجمالية المنسجمة مع نفسه ، و هو يمارس الفعل الشاذ كانت انعكاسا لنظرته للحياة في تلك المرحلة العمرية – المراهقة – و انسجاما مع مقولة الفيلسوف القروسطي المسيحي توماس أكوانيس ، و قد عرف الجمال على " أنه ذلك الذي ، لدى الرؤية ، يسر " (28) بصفة كونه موضوعا للتأمل ، سواء عن طريق الحواس ، أو في داخل الذهن ذاته .

و تأتي نظرة ماونتجوي تجاه الكنيسة في إطار القول بالحرية الخالصة ، التي لا تبتعد كثيرا عن حرية عدم الإكتراث التي نادى بها الابيقوريون (29) . كما تأتي متوائمة مع نظرته الثائرة ، و يحاول مانتجوي أن يبرر سلوكه إزاء الكنيسة ، بجرحه النفسي الذي خلفه الأب انسيليم ، بإهانة معتقده الديني . لقد ترك قول الأب انسيليم ، كما ترك جلده جزاء سلوكه في نفسه ، جرحا غائرا لا يستطيع الآخرون ادراكه بتوالي الأيام ، و تراكم الاحداث و المتغيرات . (انظر الرواية ص 101 .)

ثالثا : العلاقة الجدلية بين السياسة و الجنس :

إن القوة الكامنة في لا وعي مانتجوي أو في لا شعروه – البئر المسحورة وفق تسمية وليم جولدنج – تحاول أن تحطم العالم من حوله إلى شظايا لتقوم بلملمة جزئياته من جديد ، و ترتيبه على النحو و الشكل الذي تريد . و وفق هذه القوة فقد كان مانتجوي مشدودا إلي اتجاهين فاعلين في مكونات شخصيته و هما : العالم الخارجي ، و لمعنى أخر ، صداقاته لكلا الجنسين ، فيليب و جوني و بياتريس . و العالم الداخلي – البئر المسحورة ، أو عمقه الديني الذي يشعره بالقوة و المجد ، و توهم الاصالة ، كما يشكل

أحيانا ثورته على العالم الخارجي ، و يمنحه الحرية في الرؤية و السلوك و التصرف . فهو الطاقة السحرية الكامنة في فكره و وعيه ، و موروثه الثقافي .

لقد انتسب ماونتجوي إلى الحزب الشيوعي ، و يبدو أن فئته الاجتماعية ، بواقعها الاقتصادي و الاجتماعي و النفسي ، وجهته تجاه هذا الحزب ، و قد جر عليه ذلك مجموعة من التحقيقات الأمنية ، حتى أصبح صديقا مألوفا لمركز الأمن ، و لم يكن انتسابه للحزب سوى محاولة اكتشاف نابعة عن حريته الانتقائية في اختيار الأفضل ، فكانت الايديولوجية البروليتارية متفقة مع هواه ، و حرية اختياره السياسي المتفق مع طبقته الاجتماعية المسحوقة من بين الايديولوجيات المطروحة في الغرب .

و قد تجلت حرية ماونتجوي في اختياره الحزب الشيوعي من بين عدة امكانات متاحة ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يختار كل أوجه الامكانات العديدة أمامه ، و لذا استلزم اختياره المخاطرة ، تلك (المخاطرة التي تؤدي بدورها إلى القلق على الإمكانات عامة ، و القلق من الوجه الذي اختاره الإنسان منها ، فهذا قلق من و قلق على " (30) وفق مفهوم كيركجورد ، لارتباط القلق بالحرية ، فالقلق حقيقة الحرية بوصفه إمكانية لا مكانية (31) .

و في ظل هذا الاختيار الايديولوجي نعي موقف ماونتجوي من صديقه فيليب ابن الطبقة البرجوازية المتردد في الانتماء إلي الحزب الشيوعي ، و يعكس الحوار التالي بينهما ذلك ، يقول فيليب :" إنني أحاول الكتشاف الأشياء ، و لقد ذهبت إلى اجتماعاتهم أيضا . و الآن لا تثر أية ضجة يا ماونتجوي ، أنا غير ملتزم ، إن شئت قول ذلك .

- أنت من الطبقة الوسطى أيها الملعون . تلك هي

مشكلتك"(32) :

لقد عرف ماونتجوي معنى الحرية بممارسته حرية الجنس ، الخطوة الأولى على طريق اختيار حريته الفردية ، في بداية انتمائه للحزب ، و قد أثارت فعلته ضجة الحزب الشيوعي ، و لكن ماونتجوي عد الممارسة من قبيل ممارسته حقه في حرية الاختيار ، و التصرف و السلوك . و لا شك أن الاختيار عند كيركجورد هو الشاهد على حرية الإنسان ، فهو الاختيار الذي يكون في حالة لا يكون فيها أمام الفرد إلا أن يختار (33) . و يتساءل ماونتجوي عن معنى الحرية ، و عن معنى هذا الحب من منظوره لمعنى الحرية ، يقول :" ما هو الحب إذا هو شيء مجرد فيه ، أقل ما يمكن من الانسانية مثل اعلانات الرقص في بيكاديللي ؟ أو هل أن الحب يوحي بزفاف أبيض ؟ بيت ... ؟ ربما فقدت العذرية مكانتها المقدسة مع انتشار التنوير . و تتحرق الفتيات للسباحة . على أية حال إنها عادة اجتماعية ، فهي في الطبقة الوسطى الدنيا ، حيث تتمثل الغريزة أو العادة بالإبقاء على ما يملك الفرد دون أن يمسه أحد . و كانت في تلك الأيام طبقة ذات نفوذ هائل و استقرار ، وضعية غير كريمة (34) .

و في إطار فهم ماونتجوي لمعنى الحرية فإنه يرجع سلوك الإنسان و مفاهيمه و أفكاره و معتقداته إلى الجنس ، و لذا فالأشياء في ذهنه غائمة ما عدا المتعة الجنسية – القيمة الايجابية للحياة – التي لا يمكن إنكارها . و يبدو أن وليم جولدنج متأثر إلى درجة كبيرة بالمدرسة الفرويدية في نظرتها للجنس ، و لكن الكاتب يناقض الرؤية الفرويدية ، و يناقض نفسه في الوقت الذي يشعر فيه بحريته الداخلية – رؤيته الدينية – الكامنة في أعماق بئره المسحوقة – الجانب الجواني لعالمه الداخلي ، و بتوجيه من

عمقه الديني القابع في اللاوعي أو اللاشعور. و في ظل هذا الإطار فإنه يرفض أن يكون الجنس شعار الإنسان في الحياة كما يرى الآخرون . (انظر الرواية ص 144 - 145)

و يحس ماونتجوي دائما أنه صنيعة الاكتشافات ، و لذا فإنه كان مجبرا و ليس مخيرا و هو صغير ، إذ لم يمتلك حريته ، و لم يستطع اختيار ما يريد ، بدءا بالوالدين ، و مرورا بحياته في حي روتن ، و تبني القسيس له ، و دخوله المدرسة ، و شربه الخمر و المخدر و السجائر ، و قد أراد أن يمارس حريته بمحض اختياره ، و وفق نداءات عالمه الداخلي - البئر المسحورة ، عالم الحرية الخفي . و لذا أحس مشاركته نظرة صديقه بياتريس للكنيسة ، فهي ترى أن الحانات و المشروبات الروحية ملعونة ، و لكنها أرقى درجة من الكنيسة الإنجليزية . (انظر الرواية ص 135)

و وفق رؤية ماونتجوي أنه صنيعة الاكتشافات لم يستطع أن يحمل نظريتين متضادتين أو فكرتين متقابلتين ، أو شيئين في آن معا . فهو ابن اللحظة الآنية ، ينغمس فيها ، و يدرك نفسه من خلالها . فحريته فردية ذات وجه واحد ، و لذا لا يستطيع أن يكون فنانا و بقالا في آن معا . و تتفق هذه الرؤية مع الحرية التي تتجلى عند كيركجورد في حقل الاختيار ، الذي يعني وجود الامكانية ، و هو اختيار بين امكانات متعددة ، و الإنسان لا يستطيع اختيار كل أوجه الإمكانات العديدة الموضوعة أمامه(35).

و يأتي إدراك ماونتجوي لماهية شخصيته في إطار فهمه الحرية ذات الوجه الواحد وفق تعاقب سني عمره ، و امتداد تيار الزمن فيه ، منذ طفولته و مروا بمراهقته ، و انضمامه إلي الحزب الشيوعي ، و اعتقاله إبان الحرب العالمية الثانية ، و انتهاء بحريته الجسدية بعد انتهاء هذه الحرب ، كما يأتي من طبيعة الفنان في

ذاته ، فهو رسام . (انظر الرواية ، ص 137)

و يحاول ماونتجوي تشكيل شخصية الآخرين وفق رؤيته و ثقافته ، و هو ينقب في ذاكرتهم ، و ثقافتهم في حدود عالمهم الداخلي – البئر المسحورة – حتى يمكنه توجيههم إلى ما يريده ، و حتى يستطيع أن يلقي بظلال هذا العالم على لوحته الفنية ، و حتى تتضح عوالم الشخصية الداخلية . و قد مارس ماونتجوي ذلك مع بياتريس و هو يستفسر عن ماهية ثقافته بسؤاله عن ماهية ثقافته ، و مضامين هذه الثقافة : لأن الإنسان ابن ثقافته . يقول لبياتريس و هي في حالة استعداد للرسم :" أين تسكنين يا بياتريس ؟ تحركت ثانية فجأة .

لا تتحركي ، لا أيتها الفتاة الساذجة . ليس عنوانك ؟ في الداخل جانب رأسي يتكيء على جانب رأسك ، هل تسكنين هناك ؟ لا يمكن أن تفصلنا بوصة واحدة . إنني أعيش قرب مؤخرة رأسي في الداخل تماما . أقرب إلى المؤخرة منها إلى المقدمة . أأنت كذلك ؟ هل تسكنين في هذا المكان تماما ؟ لو وضعت أصابعي فوق مؤخرة و حركتها إلى الأعلى فهل أنا قريب ؟ أقرب ، أقرب " (36) .

و في إطار العلاقة الجدلية بين الثقافة و الجنس أدرك ماونتجوي قصور بياتريس الجنسي ، أو على وجه الدقة عدم تفاعلها معه جنسيا لحظة ممارسة الجنس ، و خوفها من هذا الجنس . و قد أرجعه إلى التربية الخطأ و الدين ، فهي تخاف الخطيئة الدينية . و من مخالفة هذا الدين ، لتحكم مخزونها الفكري ، و الثقافي ، و الديني ، و التربوي في رؤيتها و سلوكها على الرغم من موقفها من الكنيسة الإنجليزية . (انظر الرواية ص 160)

و لعل ماونتجوي لم يع أن الإنسان – الموجود الطبيعي – من بين الموجودات الأخرى هو الذي يستطيع أن يقاوم دوافعه ، و يملك "

أن يضع غرائزه موضع البحث ، و يجد في نفسه من القوة ما يستطيع معه أن يمزج الواقعة بالقيمة " (37) . و لكنه عجز عن ذلك فاتجه نحو تافي ، و كان هذا التوجه اللاأخلاقي من وجهة نظر وليم جولدنج ارتدادا عن قواعد الالتزام الإنساني ، و حبا في التغيير ، و يبين جولدنج أن التغير سمة المناخ المتولد عن الحروب ، و الصراعات الدولية ، حيث تنتعش الجريمة ، و الحرية و الإباحية ، و التحلل . و لا يبتعد بذلك عن رأي مونتسكيو في أن الحرية تتأثر بالمناخ ، و كذلك الطباع و الأهواء ، و تتأثر باختلاف المناخ إلى حد بعيد (38) .

لقد أرادت بياتريس من العملية الجنسية بداية أن يكون لها وجود اجتماعي ، و لكنها فقدت حريتها ، و لم يكن الجنس لديها غاية في حد ذاته ، و إنما خطوة أو مقدمة لخطوات أخرى لاحقة ، تقوم على أرضية الجنس الصلبة ، و قوامها الزوجة والبيت و الحماية . و قد أفقدها هذا التصور الخلقي حريتها ، عندما اتكأت على الآخر ، الأمر الذي أدى إلى ضعف إسهاماتها في الحياة . و يلخص ماونتجوي ذلك بقوله :" موت البكارة يدفع ثمن كل شيء " (39) .

و بدهي في ظل تركيبة بياتريس النفسية و الأخلاقية أن تفقد حريتها في الرؤية ، و التوجه و السلوك و الاختيار ، كما أفقدها حرية الإرادة ، و إرادة التحكم في عضلاتها ، نتج عنه شلل عضلاتها الإرادية التي أخذت تعمل دون ضوابط عقلية ، بعد أن فقدت خلايا العقل و أنسجته عملها ، ففقدت بالتالي القدرة على إصدار الإشارات و الإرشادات ، و التوجيهات بفعل تخليها عن حريتها (انظر الرواية ص 312) .

ولم تدرك بياتريس أن الطبيعة - الجنس- لا تجدد سلوك الإنسان، ولذا وقعت فريسة بين الحاجات العضوية التي تسعى

دائما إلى إشباع ذاتها، وبين تكييف السلوك مع القواعد الاجتماعية لبيئتها. ولم تع كذلك المشكلة الخلقية التي تثور في النفس جراء عدم إدراك أن الطبيعة – الجنس- لا تحدد سلوك المجتمع، وأن المجتمع لا يحل أزماتها النفسية. وفي ضوء هذا التصور لم تستطع بياتريس أن تواجه مصيرها بنفسها.

ويمكن القول إن بياتريس لم تكن تنشد اللذة غاية، فهذه يمكن تحقيقها بوسيلة أو بأخرى، بل كانت ترمي إلى أغراض أخرى توفر لها الحماية والأمن والاستقرار، ولذا لم تستطع – بفقدها هذه الأغراض- تجنب الألم ، لشعورها الخلقي الذي أظهر أن "حساب اللذات أعجز من أن يحقق للإنسان ما يصبو إليه من توازن نفسي، وأن حياة اللذة لا يمكن أن تفضي إلا إلى حالة أليمة من التشتت الروحي، أو التوزع النفسي" (40).

لقد تيقن ماونتجوي بانهيار -بياتريس- أن الحب والجنس والعاطفة عوامل تثير الحزن في نفسه، لأنها تهدف إلى سيطرة العالم المادي، الخارجي – على العالم الداخلي ، ومن ثم الامتداد نحو ساحة الآخر ، ليبسط سيطرته على الأشياء والعلاقات من حوله، الأمر الذي يفقدها حريتها. وإذا فقد الانسان حريته فإنه يفقد رغبته وقوته، وتصبح العلاقة التبادلية بينه وبين الآخر علاقة اضطهاد وتعذيب، فهو -مانتجوي- لم يستطع أن يسمو على رغباته المتعددة، حتى يحقق حريته العقلية المنتصرة التي نادى بها كانت في إطار الاستقلال الذاتي، وإنما كان فريسة ذاته، التي جاهد أن يحقق حياته بوصفها صنيعة يده، ولم يخرج في ذلك عن دائرة الأخلاق الوجودية التي تقوم على " الاعتراف بأولوية ضمير المتكلم ، وتدعو إلى تأسيس السلوك على الحرية الشخصية" (41).

وجدير بالذكر أن الحرية في نظر الوجوديين ليست حقيقة

قائمة، وليست معطى من معطيات الحس، بل" هي كسب يحصل كل يوم دون أن يستحيل إلى حصيلة ثابتة. ومعنى هذا أنه إذا أراد المرء أن يكون حرا ، فإن عليه أن يسعى جاهدا دائما في سبيل الانتقال من مملكة الطبيعة إلى مملكة الأخلاق" (42).

ويدل هذا القول على أن الحرية متحركة وليست ساكنة، وعلى الفرد أن يحدد كل يوم حريته باختيار سلوكه، ومعتقده، وفكره وفق المعطيات الجديدة، وهذا يشير إلى أن الحرية ناقصة دائما، لأنها متجددة دائما، فضلا عن أنها قلقة ،مضطربة، وغير مستقرة، ومفتقرة إلى مزيد من الاستمرار. ولذا فإن مانتجوي انتقل بعلاقته في ظل مملكة الطبيعة -الجنس- إلى تافي، بعد أن وجد فيها ضالته التي افتقدها في بياتريس، وقد أوجد هذا الانتقال الآلام المزمنة، والعذاب النفسي لبياتريس . ويوضح مانتجوي ذلك بقوله:" نحن مضطرون الآن ، وفي هذا المكان إلى أن يعذب بعضنا بعضا. نستطيع أن نراقب أنفسنا، وقد تحولنا إلى آلات، لا نشعر إلا بالعب عندما نرفع أذرعنا القريبة أدوات عاطفتها صوب أولئك الذين نحب، إن الذين يفقدون حريتهم في وسعهم أن يراقبوا أنفسهم ، وقد اضطروا اضطرار مريرا إلى فعل هذا في ضوء النهار، حتى يسأل أحدهم: من يعذب من؟"(43).

رابعا :الإشكالية السياسية وصراع المصالح

ألقى وليم جولدنج بعض الظلال على الحالة السياسية للمجتمع الانجليزي إبان الحرب العالمية الثانية. وتموجات هذه الحالة من زاوية الحزب الشيوعي الذي اشتد عوده زمن الحرب ،والتزم كوادر الحزب بعقيدتهم الشيوعية إلى حد التضحية بالنفس في سبيل مبادئ الحزب، فهم يشعرون بأنهم يناضلون في سبيل هدف سام، ولذا فإنهم يستعذبون التضحية والفداء يقول

ماونتجوي في ذلك:" فهناك قوة محددة ،إذا كان المرء شيوعيا ، إحساس بالاستشهاد، وإحساس بالهدف " (44).

ويأتي هذا الالتزام في ظل المذهبية الثقافية لكوادر الحزب الشيوعي، ولاشك في أن الإنسان رهن مذهبه الشقافي، ومن آمن بمذهبه دان له وارتضى"في سبيله التضحية لتمسي المذهبية الثقافية جزءا من شعورالإنسان ومن كيانه" (45)".

ولكن وليم جولدنج لم يرد صبغ الحزب الشيوعي بالصبغة المقدسة، فقد كشف عن الخلخلة، وفقد القيم الأخلاقية لبعض كوادر الحزب ،وهو يعري العلاقة بين ماونتجوي وتافي عضوالحزب الشيوعي ،تلك العلاقة الت يقامت على قاعدة إشباع الطبيعة-الجنس- لدى كل منهماعن حرية واقتناع.وقد اتخذت العملية الجنسية بينهما شكلا علنيا، ويعكس ذلك فقد المعايير والقيم الأخلاقية، فالشيوعي في نظر ماونتجوي لايقيم وزنا للأخلاق، لأن الشيوعية لاتؤمن بوجودإله خالق، فهو في نظرهاغير موجود، ولذا لا تتقيد بمعتقد ديني، ولابنواميس هذه المعتقدات . ولم يشذ الوجوديون عن ذلك ، وبخاصة وجودية سارتر التي انتهت إلى فكرة لاهوتية لاإله فيها (46). ويبين ماونتجوي ذلك بوضوح بقوله: "ومارسنا الحب على نحو وحشي، ومتبادل....على أية حال كنا شيوعيين، وحياتنا الخاصة تهمنا وحدنا. وكان العالم ينفجر، ولن يعيش أحد منا طويلا"(47).

لقد أدت الحرب إلى خلق مناخ جديد قوامه عدم الانتماء والاباحية، واللامبالاة، والأنانية ، والفردية، والذاتية، والخروج على ضوابط القيم، والأخلاق، والعادات، كماأدت إلى حرية الحركة، وحرية التصرف ، على قاعدة الأولوية الحادة، الوليد الشرعي في زمن الحرب، فمانتجوي وتافي يفهمان معنى المتعة، وعدم الغيرة، فلكل

عالمه الخاص، ولكل فهمه للمتعة التي قد تتحقق عن طريق طرف ثالث دون أن يؤثرعلى علاقتمها ، يقول مانتجوي:" لم يكن أي منا غيورا، بل سيفهم المتعة التي يحصل عليها من شخص ثالث. لاشيء يدوم كل شيء نسبي. الجنس مسألة خاصة ، الجنس مسألة سريرية، ومنع الحمل قضى على ضرورة الحياة الأسرية المتزمتة"(48).

وعلى الرغم من هذا الانفتاح والمشاعية الأخلاقية فقد فقد ماونتجوي حريته في الاختيار، و تماثلت لديه القضايا بعد أن تخلى عن حريته، وعن الانتساب إلى الحزب الشيوعي في زمن الحرب، وقد أدى التماثل إلى اختلال القيم، وتلاشي المعايير وفقد القيم النقدية- بوصلة الاتجاه والرؤية والحكم على الأشياء- كما أدى إلى عدم القدرة على التمييز بين الأشياء. فهو لايرى اختلافا بين الفوضى العقلية والفوضى في العالم الخارجي، لقد تشابهت الحالتان لديه، ويشير هذا إلى ارتباكه وعجزه عن الفعل الهادف البناء، بعدأن افتقد رؤية ارتكاز تمكنه من تنسيق أفكاره وسلوكه، وكافة الانطباعات التي تمسه. كما تشيرإلى أنه فقد خريطة العالم الطبيعي من حوله، بعد أن افتقد صورة المجتمع التي يجب أن تكون، وهي "صورة ذات تكوين، وذات أطر محدودة ، وتكوين متكامل، وتماسك داخلي"(49).

ويبين ماونتجوي صورة العالم من حوله بقوله:" هناك فوضى في العقل،... وفوضى في العالم عموما، حالتان متشابهان، ربماخلفت إحداهما الأخرى، البيوت المهدمة، اللاجئون، الموات والعذاب يقبلان بهما كنموذج للعالم، وسلوك شخص ما، عبارة عن مرض صغير بما فيه الكفاية"(50).

وفي ضوء هذه الفوضى المتولدة عن عدمية الرؤية لأسباب

متعددة لم يعد وليم جولدنج أونموذجه القصصي يرى ثمة فرق بين قتل فرد ،أو قتل البشر جميعا، ولعل هذا التبرير يقع في إطار اقناع نفسه بالكف عن جلد الذات، ولاشك أن الألم والعنف والتدمير من مقولات الواقع الانساني التي يستغلها لتبرير أخطائه، فهي تنتمي إلى عالم عاجز وعديم الشفقة. يقول مانتجوي لنفسه: "لماذا تزعج نفسك بالقتل في مكان خاص في حين أنك تستطيع إطلاق النار على الناس علنا، وتتلقى التهنئة على ذلك علنا، لماذا تزعج نفسك بشأن فتاة ممزقة واحدة، في حين يموت آلاف الفتيات تحت وابل القصف" (51).

وقد أراد ماونتجوي القول بأن الإنسان يملك حرية القتل والتدمير مادام هذا القتل والتدمير في سبيل المصلحة الذاتية، متعددة الأوجه، والمتناقضة مع مصالح الآخرين . ويرى أن هذا التناقض يسمح بالقتل و التدمير في سبيل المصلحة العليا للفرد والأمة، ويلاقي القبول والاستحسان، ويفرض سياسة الأمر الواقع التي تجبرالمهزوم على ضريبة هزيمته بأشكال متعددة تحت راية الانتصار. (انظر الرواية ص 298)

في ظل الإشكالية السياسية وصراع المصالح ، اختار الكاتب لخريطة هذه الإشكالية نمطين أو نموذجين متصارعين في زمن الحرب العالمية الثانية، هما نظام القوة والتسلط، والقهر المدعم بالقوة العسكرية أولا. وقوة النفس، والإرادة، وروح المقاومة، وحرية الرأي، والفكر والسلوك ثانيا. ويأتي النمطان امتدادا للصراع بين القوة الغاشمة وبين قوة الإرادة والنفس . ويبين وليم جولدنج باختياره النموذجين حقيقة الصراع الانساني، على قاعدة السياسة والاقتصاد والمصلحة الذاتية، وبسط السيطرة والنفوذ، ومحاولة إلغاء الآخر. ويقف تصادمهما الفكري والجسدي عبر خطوط الحوار

وفنونه، ووسائل التعذيب المختلفة دليلا حياعلى تصادم مقولات الفكر الإنساني التي تعكس المصالح، والرؤى، والاتجاهات ، وأنماط السلوك، كماتقف مؤشرا على اختراع فنون من القول والعمل، وعلى توليد أنماط من المعرفة عن الذات، وعن الآخر لاتتسنى في زمن الحرية - زمن السلم- والرخاء. فالأزمات تكسب الإنسان القدرة على الرؤية، أما ضياعها التي ينتزعها ثمن فقد الحرية، فهو مقدمة أساسية لنمط جديد من الرؤية والمعرفة ، ولفعل آخر يختلف عنه في زمن السلم والرخاء.

ويشير التقابل المعرفي والإنساني لكلا الطرفين - ماونتجوي الانجليزي، والدكتور هالدة الألماني- إلى احتكاك المعرفة، وجس النبض، وقهر الآخر بوسائل شتى من القول والفعل، وفق الظرف والحاجة، ووفق ما تقتضيه المصلحة. وعلى الرغم من التقاطع، والتقابل، والتوازي، والتماثل في رؤية كل منهما، ومواقفهما، وسلوكهما، فإنهما يمثلان حقيقة الإنسان في الحياة، وصراعه من أجل مصلحته الفردية أولا، ومصلحة الأمة التي ينتمي إليها ثانيا، وبخاصة في ظل التضاد والتناقض، فقدر بلديهما أن يعذب أحدهما الآخر.

وعلى الرغم من انتماء كل منهما إلى الحزب الشيوعي سابقا فإن المصالح متناقضة، والأهداف مختلفة ومتضادة، وفق رؤية كل منهما للمصلحة الخاصة والعامة، ووفق استراتيجية هذه الرؤية. يقول د. هالدة المحقق لمانتجوي المعتقل في معسكر النازي: "لقد كنا شيوعيين على أية حال. الغاية تبرر الوسيلة... الحقيقة لي ولك في هذه الغرفة، لقد منحنا نفسينا لنوع من الآلة الاجتماعية، أنا تحت سيطرت هذه الآلة، وأنت تحت سيطرتي تماما. وهكذا نحن درجات ياسيد مانتجوي"(52).

ويأتي اختيار جولدنج للدكتور هالدة ولمانتجوي في إطار صراع الثقافات، وتناقض المصالح و وتضارب المواقف، ولاشك أن صراع الثقافات يعد القاعدة الأساسية لبناء الأمم، وتقدم الشعوب ، والمولد الحقيقي لحركتها، وانتماءاتها وبناء حضارتها. فكلاهما يمثل زاوية ثقافية تختلف عن الأخرى وتتقاطع معها، وتحاول أن تثبت أحقيتها في الحياة والوجود على حساب الأخرى ، وتثبت انتصارها بالفكر والثقافة والسلاح.

ولعل محاولة هالدة إقناع مانتجوي الانجليزي بالعتراف عن شبكة الضباط والجنود الذين هربوا من معسكر الاعتقال، وعن خططهم التي أتاحت لهم فرصة الهرب دون تعذيب، تأتي خطوة أولية في حق لصراع لعبة شد الحبل بينهما، وإغراء لالتزام حرية اختيار الحياة على الموت، حتى يخدم الحقيقة العليا، وأركانها البقاء، والفن، والمعرفة، والحقيقة. ولم يكن اختيار دكتور هالدة لمانتجوي عبثا، فهو يمثل المثقف، الحلقة اللينة. والأرض الرخوة في لعبة شد الحبل النفسي ، ولعبة السلاح الدامية، بنفسيته الهشة، وبوضعه الاجتماعي، وبمكتسباته ، ويمثل الخطوة الأولى في سلسلة الانهيارات إذا تعرضت مصالحه لخطر، وبخاصة إذا لم يكن منتميا إلى فكر، أو إذا لم يكن صاحب رؤية وايديولوجية.

وفي محاولة كسر حاجز الصمت بينهما يقدم د. هالدة عروضا وإغراءات، وهو يركز على موهبته الفنية التي يجب أن يوليها رعاية خاصة، فهي كنزه الباقي،حتى يشعر بأهميته، فيعترف بالتالي عن طواعية وطيب خاطر، يقول د.هالدة في هذا السياق: " أرجوك، اصغ،أنا اختارك لا لأنك جزء من المنظمة فحسب، بل لأنك فنان، ولهذا لابد أن تكون موضوعيا، ومختلفاعن زملائك، رجل يعرف متى لاتكون الخيانة خيانة، ومتى ينبغي على

الفرد أن يكسر القاعدة، أو ينكث الوعد، كي يخدم الحقيقة العليا"(53).

ويحاول د.هالدة ممثل الحركة النازية في جانبها الإعلامي الذي يرتكز إلى أسس وقواعد نفسية، انتزع الاعتراف من ماونتجوي، بوسائل متعددة : بالإغراء والتهديد، وتسطيح شخصية ماونتجوي وتشريحها وبعبارة أخرى يحاول زعزعة الثقة في ماهيته الانسانية ، وغرس روح الهزيمة في ذاته .ولاغرابة في ذلك، فالعجلة الإعلامية الألمانية في زمن الحرب العالمية الثانية، كانت تملك المهارة والكفاءة العالية، ويمثل ذلك وزير إعلامها جوبلز الذي كان قوي في حشد الشعب الألماني خلف مقولاته، ورؤاه، وأحقية الشعب الألماني في السيادة على الشعوب الأخرى ، ومنطلقه تفوق العنصر الجرماني ، (انظر الرواية ص190).

أما ماونتجوي رمز الغرب، وعنوانه، ومعادل الجناح الآخر الموضوعي في لعبة الصراع الدولية في زمن الحرب العالمية الثانية، فلا يختلف في رؤيته الانسانية عن د.هالدة، وهي أن الاختيار الخطأ، والاستعمال السيء للحرية يفقد الانسان حريته. و قد اختار ماونتجوي حرية عدم الاعتراف، فالحرية الجسدية في نظره حرية قاصرة، ولا معقولة، أما حرية النفس والروح والجسد معا فهي الحرية الراشدة المعقولة كما يرى (برديف) الفيلسوف الروسي(54)، ومايميز الحرية الانسانية ظهورها كاختيار بين ضرورتين، وهذا الاختيار"رهن يتقبلنا للقيمة التي هي سر الحرية"(55)، وعندئذ لن يكون ثمة اختيار بين أطراف متعددة، بل تتقدم فكرة الاختيار، وتصبح الحرية على حد تعبير (لافل) هي القيمة الفاعلة في ذاتها (56).

ولم يخرج هالدة الألماني عن هذا التصور، رغم أنه القاضي

والجلاد ،على قاعدة وظيفته التي تناقض رؤيته ومبادئه وثقافته، ويشكل هذا التطابق اقتناعهما بأن كل أطراف لعبة الصراع والموت على خطأ، ولكن الضرورة ،ضرورة المصالح تقضي الصراع وبسط السيطرة ، والسيادة على الآخر، واستغلاله، وتسخير موارده ، وطاقاته، ومنجزاته لصالحه. وفي ضوء هذه الرؤية التبادلية لأطراف الصراع التي تكتسب صفة الديمومة ما دام الانسان مكلفا بوراثة الأرض وتعميرها ، ويستند في ذلك إلى قانون التكليف الإله للإنسان بالحركة والحرية والعمل في الأرض، ولذا فالتاريخ غير قادرعلى فك تشابك الظروف بين الأطراف المتناقضة والمتصارعة ،لأنه لا يستطيع تقرير أيهما على صواب أو على خطأ، أو لا أحد منهما على الاطلاق، يقول د.هالدة لماونتجوي عن ذلك:"المشكلة يتعذر حلها، حتى لو استطاعوا أن يفهموا تحفظاتنا، أحكامنا السريعة، إحساسنا بالصدق الذي لايعد سوى نكوص لا نهاية له، جزيرة متنقلة وسط الفوضى"(57). وفي إطار فهم كل منهما الحرية فن ماونتجوي لن يتخل عن حريته في الابقاء على معلوماته رهن ذاكراته رغم السجن الانفرادي في زنزانة مظلمة.

وقد استدعى ظلام الزنزانة، وفقده حريته الجسدية- الخارجية -حرية الحركة والتنقل ، السؤال الذي يلح عليه دائما، وهو كيف بدأت أخشى الظلام إلى هذا الحد؟ سواء أكان الظلام المادي أم المعنوي.

ويفرض عليه إلحاح هذا السؤال استدعاء طفولته المعذبة في ظل والدته، وفي كنف القسيس واطس -واط ، ومديرة منزله السيدة باسكو، وبرج الكنيسة الذي كان يمثل له رأسا قبيح المنظر، مع ما يعنيه هذا الرأس من رؤية لديانة الآخر. ورغم الظلام متعدد الأوجه الذي استلب منه الحرية الخارجية، فإنه ظل

طليقاحرا على الصعيد الفكري والذهني، يجوب الأزمنة المتلاحقة، وفواعل هذه الأزمنة، وتشكيلها الشخصية في أبعادها، ومستوياتها النفسية والاجتماعية والأخلاقية.

لقد كان ماونتجوي حرا في التوغل عبر الزمن الممتد لحياته منذ طفولته حتى لحظته الراهنة-سجنه-وحرا في استعراض البشر الذين أثروا في حياته سلبا وإيجابا،وتحليل شخصياتهم بمستوياتها المختلفة، وبخاصة النفسية والمسلكية، والعقدية، فالصلاة لواطس- واط توفرله الحماية من الأفكارالشريرة " التي تدور في أذهان كل الناس بصرف النظر عن صفاتهم الحميدة، وبصرف النظر عن الجهود الحميدة التي يبذلونها. ولهذا ينبغي للمرءأن يصلي... وبهذا يتمكن من طرد الأفكار والنوم نوما هادئا "(58)، ولم تكن صلواته سوى نوع من الإشارات الغامضة عن الأعداء المتخيليين والوهميين ليبقى في دائرة الضوء، وحتى لايفقد مركزه في الكنيسة. وفي ظل هذا الظل الوهمي المتعمد فإن الأب واطس- واط أحاط ماونتجوي - ابنه بالتبني - بغموض تام من الإشارات عن الأعداء والأشباح ، والغيبيات والأهوال العامة، وأوحى له بأنه شريك لهؤلاء، ولذا جعله في دائرة التوهم بالمراقبة.

ويرى ماونتجوي أن سلوك الأب واطس - واط ليس إلا سببا لإخفاء دوافعه الحقيقية عن نفسه، وعلى مستوى ما " تظاهر أنه مجنون كي يتخلص من مسؤوليته عن رغباته ودوافعه المخيفة ... وتعد هذه الحالة عند الأب واطس- واط و ماونتجوي من حالات النكوص اللامتناهية ونسبية لا حل لها"(59).

ويمكن الإشاة إلى براعة ماونجوي في تشريح شخصية الأب واطس -واط بأبعادها المتعددة، النفسية، والدينية، والأخلاقية،

والاجتماعية، والفسيولوجية، وبخاصة جانب القصور الجنسي لدى الأبواطس-واط. فالأب واطس-واط لم يقترب من صبي في المدرسة، أو في الدير اقترابا مباشرا بسبب الرغبات المريضة التي سممته. لقد صوره ماونتجوي بأنه يملك مخزونا هائلا من الرغبات الجامحة، تشكلت في مرحلتي الشباب والجامعة،حيث في وسع الشباب والتجربة أن يسيرا معا، ويمارسا الحب. ولكن موجودات طبيعته الخالية من الأشجار المثمرة -الأبناء والزوجة- لم تكن سوى القذراة . وبعبارة أخرى لم يعد يملك سوى صور الحياة، أما الحياة نفسها فقد تخلت عنه بعد أن تخلى عنها، ولم تعد لديه سوى الرغبات المحمومة والمكبوتة بفعل قوى خارجية، رغم أن عالمه الداخلي يمور بالعذاب ، ويطفح بالرغبة المجنونة، ويحس ماونتجوي أنه مفيد، ويبعث على الاطمئنان عند الأب واطس-واط فهو بالنسبة له بدل فاقد، ومعادل موضوعي لرغباته المكبوتة. ولكن هذا الفقد لم يأخذ صفة الاستمرارية لدى واطس-واط، فأزمته النفسية، وصراعه مع الواقع يرفض هذا المعادل، ويفرض عليه سؤال في خضم معركته النفسية بين واقعه وبين ماكان يجب أن يكون، وهو: لماذا علي أن أرى ابنا لايمت لصلبي بصلة؟لماذا لم أتزوج...إلخ، وقد أوجد ذلك لديه حالة من القلق والغموض واليأس والخوف من الحياة، ومن العتمة الداخلية. وفرضت عليه الحذر من النوم خوفا من الموت. وبعبارة أخرى فرض عليه الظلام النفسي والأمني خالة من رعب لاعقلاني عام (60).

ويبدو أن ظلمة منزل الأب واطس - واط امتدت لتعمر عالم ماونتجوي الجواني، وأحالت عليه أسئلة تريد لهاجوابا عن الأسباب التي أدت إلى تشكيل ظاهرة الخوف لديه، رغم أنه لم يكن يخشاه سابقا، لقد بدأت خيوط شبكة النسيج العمكبوتي للظلمة

الداخلية تتداعى، وتفصح عن الأسباب الفاعلة في تشكيل هذه الظلمة التي استدعتها زنزانة ماونتجوي بأدواتها التعذيبية.

وقد شكلت العتمة لديه معاناة الخوف على ممتلكاته الخاصة- نموذج الجنس البشري - ومعاناة تضخم عالمه الذهني بالتساؤلات، والتصورات، والتهيؤات، والانتقال من محطة إلى أخرى عبر الزمن الممتد منذ طفولته وحتى لحظة تواجده في الزنزانة ، وبالجمل العديدة التي يسمعها يتردد صداها في ذهنه عن صراعه مع الدكتورهالدة. وقدخلق هذا الشعور لديه ذهنية حادة بلغت درجة من الشفافية إلى حد مراقبته الأشكال الأميبية التي تسبح في دمه، والاستماع إليها، وإلى حد فقده الصوت، يقول في ذلك : "تكلمت بصوت عال، وكان صوتي خشنا، أخذوه مني. أنا ؟ أنا العديد من الأنوات" (61).

و من مظاهر معاناة تضخم الأفكار لدى ماونتجوي مجموعة من الهواجس والأفكار والتوقعات، التي تشكلت عندما وضع في مناخ يتيح له الهرب. لقد أدرك ماونتجوي، وفق تصوراته ،مخطط الدكتوة هالدة الذي يدفعه باتجاه الباب الوحيد المفتوح على مصراعيه - باب النجاة الوحيد- وكأنه يقول له:"نريد منك أن تقوم بالخطوة التالية، نعرف أنك سوف تفعل ذلك، لأننا لانخطئ أبدا. لقد قهرنا العالم. وعلقنا في صف واحد الأجساد المنتهكة لأثيوبيا، و اسبانيا، والنرويج، وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، وفرنسا، وهولندة، وبلجيكا.من تظننا ؟ ... نحن لانعذبك. نحن ندعك تعذب نفسك"(62).

كما أدرك ماونتجوي أنه وضع في مركز اختبار قوة الإرادة، والقدرة على التحمل في ظل أجواء غير مقبولة انسانيا ونفسيا، فاللزوجة ،والعفونة، والاحماض، والجثث والصديد، هي مكونات

المكان، وكلها تقودإلى الانهيار والاعتراف. ورغم ذلك أعلن قبوله التحدي، وقبول الباب المغلق حيث: الظلام، السماء الموصدة، ومنطلقه أن الحرية الشكلية لاقيمة لها أمام حريته الداخلية: الإرادة والعزيمة، والقوة، ولذا نأى بجانبه عن الباب المفتوح، حتى لايمنح عدوه فرصة فرض إرادته وعقليته وخططه عليه، بل التفت إلى ماضيه، الضاربة جذوره في أعماق التاريخ، يستمد منه قوته، وإرادته. وتحمله ألوان العذاب. ويشكل هذاالماضي مورثه الحضاري لديناته اليهودية على حد تصوه لهذه الحضارة، ويمكن القول إن مشكلات الظلمة الداخلية لديه تعود إلى أسباب نفسية، تتعلق بأسرته أولا، وبنظرة المجتمع لوسطه الاجتماعي ثانيا، ولمعتقده الديني ثالثا، مع ما يشير إليه هذا المعتقد من قضايا فكرية، واجتماعية، واقتصادية ،وانغلاق على الذات، وبديهي أن يؤدي هذا الانطلاق إلى ردة فعل الآخر، مما تنعكس بالضرورة علي نفسية الشخصية اليهودية في المجتمعات الاخرى وهذه النظرة قديمة جديدة درسها علماء الاجتماع ، وقد عبّر عنها عالم الاجتماع الفرنسي دور كايم بقوله:" إن كل عصر، وكل مجتمع إنما يضعان تحت مفهوم الإنسان انسان هذا العصر، أو ذلك المجتمع. وإذا كان من الحق أن اليوناني قديما لم يكن يحسب للبربري أي حساب، ، فإن من الحق أيضاآن الرجل الأوروبي-اليوم-إنما يعتقد آن الانسان هو على وجه التحديد، انسان هذا المجتمع الغربي المسيحي...)(63).

وتماثل الظلمة المكانية لدى ماونتجوي، سواء ظلمة طفولته المعذبة في حي روتن رو، أوظلمة الزنزانة على الرغم من اختلاف الأزمنة و تباعدها، أوظلمة الأوهام التي تسير الآخرين في حياتهم كما سيرت الأب واطس-واط، و على الرغم من تقدم العمر

بماونتجوي فإن الأوهام تتالى وتتغير بتغير الظرف و الأشخاص، و لكنها تظل متشابهة تماما بعلاقتها بالراوي، فهو مستودع سرها، ومخزونها الثقافي والفكري.لقد أصبحت جزءا منه على الرغم من اختلافها باختلاف الأفراد، فأوهام أمه عن ولادته، وعن حبيبها الغالي-والده- تختلف عن أوهام -صديقته- وأحلامها المريضة، وتهيؤاتها العبثية اللامعقولة التي تدخل في إطار اللوحة السريالية، وعن أوهامه اتجاهها، واتجاه حبيبته بياتريس، وأوهام زوجته تافي، وأوهام الأب واطس-واط، و مديرة منزله. و هذا يشير إلى تحول حرية الاختيار لديه، بتنقله عبر الزمن بأناسه و أوهامه إلى حرية الجبر.

المصادرو الهوامش:

1-رتفن. ك .ك.وآخرون، موسوعة المصطلح النقدي ،ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1983 ،ص275.

أنظر: حرية الفكرلبيوري .ج .تعريب محمد عبد العزيز اسحاق . القاهرة للتأليف والنشر، المطبعة الاجتماعية . القاهرة 1950 ، ص147.

2- د.ابراهيم ، زكريا، مشكلة الفلسفة، مطبعة مصر ، القاهة1971 ، ص227.

3- سارتر، جان بول، معنى الوجودية ،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت د. ت ،ص 17.

4- جولدنج، وليم ، السقوط الحر، ترجمة محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد 1991، ص 11.

5-سارتر، الوجودية مذهب انساني ، ص82 ،84.

6- رواية السقوط الحر ، ص 13.

7- التوحيدي ، أبو حيان ، المقابسات ، طبعة السندوبي 314-315.

8- د. ابراهيم ، زكريا ، مشكلة الحرية(1)ط 3 مكتبة مصر . القاهرة 1972 ،ص 18.

9- الإمام الغزالي ،أبوحامد ، تهافت الفلاسفة، طبعة الأب بويج ، بيروت 1937،ص 99 .

10-المرجع نفسه -ص99.

11-رواية السقوط الحر ، ص22.

12-المصدر نفسه - ص23.

13-المصدر نفسه - ص25.

14- المصدر نفسه- ص 25- 26.

15- المصدر نفسه- ص 27.

16- المصدر نفسه - ص39.

17- المصدر نفسه-39-40.

18- فروم ، اريك ، الانسان بين المظهر والجوهر، ترجمة سعدزهران، سلسة عالم المعرفة العدد140، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدب ، الكويت 1989 - ص 146 .

19-رواية السقوط الحر ، ص34 -35 .

20 - المصدرنفسه -ص46.

21 - المصدر نفسه - ص 48.

22- المصدر نفسه - ص 68.

23- المصدر نفسه -ص 79.

24- المصدر نفسه - ص 78.

25-المصدر نفسه - ص94.

26- فروم،اريك ، الانسان بين المظهر والجوهر ،ص 148.

27- انظر: مشكلة الفلسفة للدكتور زكريا ابراهيم، ص185 - 149.

28-رتفن . ك.ك وآخرون . موسوعة المصطلح النقدي، ص 172.

29- د . ابراهيم، زكريا، مشكلة الفلسفة ، ص46.

30-د.بدوي ، عبد الرحمن، درسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980 ، ص 23 - 24.

31- د . ابراهيم ، زكريا ، مشكلة الفلسفة ، ص 78.

32- رواية السقوط الحر ، ص 130 .

33- د. حباتر ، سعد الدين، مشكلات الحرية في الفلسفة

الوجودية ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1975 ، 80 .

34 - رواية السقوط الحر ، ص 123.

35- د.حبا تر ، سعد الدين ، مشكلات الحرية في الفلسفة الوجودية ، ص77. انظر : معنى الوجودية لسارتر، دار مكتبة الحياة ، بيروت د. ت ، ص 29 - 30.

36 - المصدر نفسه، ص 139 - 140.

37- د . ابراهيم ، زكريا ، مشكلة الفلسفة ، ص 205 - 206 .

38 - د.أبوخاطر ،هندي ، نظرات في الحتمية والجبرية و الحرية ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت1981، ص58.

39 -رواية السقوط الحر ،ص 158.

40- د.ابراهيم ،زكريا، مشكلة الفلسفة ، 207.

41- المرجع نفسه ، ص220.

42- المرجع نفسه ،ص220.

43- رواية السقوط الحر ،ص153، ويقصد بقوله نحن مضطرون الان- سامي ماونتجوي و بياتريس.

44- المصدر نفسه، ص 165.

45- د. أبو خاطر ، هنري ، نظرات في الحتمية والجبرية والحرية ، ص57.

46- د .ابراهيم، زكريا، مشكلة الانسان(2) مكتبة مصر القاهرة ، ص959 -258. انظر :الوجودية لجون ،ماكوري، ترجمة: د . امام عبد الفتاح امام، عالم المعرفة العدد 58 / الكويت1982 ، ص 84 - 90 .

47- رواية السقوط الحر ، ص 166 -167.

48 - المصدر نفسه ، ص 170.

49- فروم، اريك ، الانسان بين المظهر والجوهر ، ص 146.

50 -رواية السقوط الحر ، ص 172.

51- المصدر نفسه ، ص 172 ، انظر ، ص 319.

52- المصدر نفسه ،ص184.

53 - المصدر نفسه ، ص 183.

54-د. ابراهيم، زكريا ، مشكلة الحرية ، ص61.

55- المرجع نفسه، ص60.

56- المرجع نفسه ، ص60.

57- رواية السقوط الحر، ص198.

58- المصدر نفسه ، ص 208

59- المصدر نفسه، ص 210.

60- المصدر نفسه، ص216.

61 - المصدر نفسه ، ص 222.

62- المصدر نفسه، ص 229.

63 - د. ابراهيم ، زكريا ، مشكلة الانسان ، ص 14.